التجديد
مجلة فكرية نصف سنوية محكمة
العدد العشرون
أغسطس 2006م
رجب 1427هـ
المجلد العاشر

عبد الرحمن حللي*

أبعاد صوفية للإسلام**

إلى أولياء شيراز تهدي المستشرقة الألمانية أنيماري شميل Annemarie Schimmel (ت2003)، كتابها الأبعاد الصوفية للإسلام (Mystical Dimensions of Islam) الصادر عام 1975، والذي صدرت مؤخرا ترجمته العربية بحلب بعنوان "أبعاد صوفية للإسلام"، ترجمه عن الإنكليزية الدكتور عيسى علي العاكوب، والذي ترجم قبله كتابها عن جلال الدين الرومي "الشمس المنتصرة: دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي" الصادر في إيران 2000، وسيصدر له أيضا ترجمة كتابها "وأن محمدا رسول الله: تبجيل النبي في الدين الإسلامي".

والكتاب دراسة موسعة وموثقة عن تاريخ التصوف في الإسلام من حيث جذوره ورجاله وتياراته، وقد اعتمدت فيه على كتب التصوف المرجعية القديمة والحديثة وبمختلف اللغات التي كتبت بها وخصوصا الفارسية (وقد قابل المترجم النصوص الفارسية بأصولها مباشرة قبل نقلها إلى العربية)، كما رحلت إلى مختلف

---

* كاتب وباحث سوري.

** كتاب: **أبعاد صوفية للإسلام** (625 صفحة) المؤلف: أنيماري شميل، ترجمه عن الإنكليزية عيسى علي العاكوب (حلب: دار الملتقى، ط1، 2006). [لعله كان من الأولى والأصح ترجمة عنوان الكتاب على النحو الآتي: **الأبعاد الصوفية للإسلام** – المحرر].

البلاد لاسيما تركيا وباكستان والهند وضمنت ثقافة مسلميها في الكتاب.

من البداية تبدو المؤلفة مدركة للصعوبات التي تعتري عملها؛ إذ "إن مجموع ما كتب عن التصوف في الشرق الغرب مطبوعا ومخطوطا عصي على الحصر". لكنها حرصت على أن تجمع ما يمكن أن يشكل أساسا لعدد من المقررات الدراسية في موضوع التصوف، هذا التصوف الذي يعكس في نظرها المواقف المختلفة للمسلمين إزاء "العالم"، نظرا لجذور التصوف العميقة في الممارسات التعبدية التي علمهم القرآن إياها.

بعد البحث في سؤال **ما هو التصوف؟** تحفر المؤلفة في **الإطار التاريخي للتصوف التقليدي** بحثا عن جذوره في الإسلام والتي ترجع إلى نبي الإسلام عليه السلام والقرآن، حيث وجدت كل نزعة داخل الإسلام وكذا في إطار التصوف "مادة لدعم آرائها من الأحاديث النبوية، وفي العصور المتأخرة هناك عدد كبير من الأحاديث لا توجد في الصحاح.. استخدمها الصوفية". وتضيف المؤلفة: "ونحن لا نعرف كم من الحكايات المتأخرة حول تعبد محمد وتنسكه يكون صحيحا وكم تعكس على نحو واضح المثل العليا للتدين الصوفي المتأخر". ثم تسرد الأسماء البارزة في حركة التصوف وحكاياتها في سلسلة يعتمدها الصوفية بدءا من الصحابة وإلى عهد الإمام الغزالي وتجربته، والذي اجتذب اهتمام الباحثين الغربيين وترجمت الكثير من مؤلفاته إلى لغات الغرب، ودرست شخصيته والأسئلة الكثيرة حولها، ومع ذلك يبقى الكثير -في نظرها- مما يمكن عمله حول الغزالي.

تتابع شميل بحثها في أبعاد التصوف لتسبر أسس **الطريقة الصوفية**. إحدى ثلاثية التصوف الإسلامي (الشريعة، والطريقة، والحقيقة) التي تقابل الثلاثية المسيحية (التطهر، والتأمل، والإشراق)، فتبحث في مراتبها وأولوياتها ومقاماتها، وتحولاتها عبر التاريخ الإسلامي، واختلافها حسب رؤى رجال التصوف وتجاربهم ومراتبهم، وتتعمق في تحليل قضايا المحبة والفناء، وصور العبادة، والذكر والدعاء، والسماع والرقص الصوفي.

وفي بحثها حول **الإنسان وكماله** في التصوف تلاحظ أنه "من غير المتيسر على جهة الحقيقة تقديم وصف لعلم الإنسان الصوفي في الإسلام؛ لأنه متعدد الجوانب مثل الإسلام نفسه، والاختلافات بين التيارات الصوفية المبكرة والمتأخرة مهمة". ثم ترصد الكاتبة الرؤى الصوفية في ذلك بدءا من قصة خلق آدم، وقضية الخير والشر وصلتها بالشيطان، والأولياء والكرامات، وصولا إلى تبجيل النبي محمد ﷺ المثل الأعلى للمسلم الصادق، الذي أصبح شخصية وسيطة للتجربة الدينية -رغم كون القرآن هو الوحي الإلهي- وذلك للحفاظ على الإيمان الإسلامي في مظهره الشرعي. وتعرض السيدة شيمل شواهد لمكانة النبي عليه السلام في مشاعر المسلمين، ثم تعلق على ذلك بالقول: "إن القصائد المنظومة في تركية وإيران وأفغانستان والهند باسم هادي البشرية وخير الخلق والنور الأزلي ومغيث أمته، تعكس من الشعور الصادق للجماهير الإسلامية أكثر مما يعكس الكثير من المقالات العلمية حول البحث النبوي الصوفي" (وقد سبق أن ذكرنا أن للمؤلفة كتابا عن "تبجيل النبي"، وأن ترجمته إلى العربية ستصدر قريبا). وترى شميل "أن محمدا هو الذي يجعل الإسلام دينا متميزا، وإنه لنموذجي، في وقت هزم فيه الإسلام في كل مكان من الميدان السياسي وفي وقت تجاوزت فيه القوى الغربية عمليا وروحيا على العالم الإسلامي، إن أولئك الصوفية هم الذين أوجدوا طرقا وأخويات جديدة سموها الطريقة المحمدية أصبحت شخصية محمد لديهم مركز القوة"، ولعل هذا الجانب من أهم الإسهامات التي قدمها التصوف في حياة المسلمين.

تتابع شميل البحث في **الطرق والأخويات الصوفية**، التي وصفتها بكونها قابلة للتكييف والتعديل مما جعلها وسيلة مثالية لنشر تعاليم الإسلام كما في الأجزاء الواسعة من الهند وأندونيسيا وأفريقيا جنوبي الصحراء، هذه المناطق التي صارت مسلمة بفضل النشاط الذي لا يفتر لوعاظ الصوفية الذين جسدوا في حياتهم التعاليم الأساسية للإسلام: محبة الله والتوكل عليه، ومحبة النبي وأصحابه، من دون الانغماس في المماحكات المنطقية والفقهية، كما استخدم هؤلاء الوعاظ اللغات المحلية بدلا من اللغة

العربية في مخاطبة مريديهم والتواصل معهم، كما أن معظم الطرق الصوفية يتطابق مع طبقات معينة من السكان، ثم وفي إثر ذلك عرضت المؤلفة لأبرز الطرق الصوفية وشخصياتها وأدوارها.

بعد التصوف الطرقي تبحث شميل في **التصوف الإشراقي** الذي بدأت جذوره مع تصوف النور الذي أوضحه بجلاء الغزالي -رائد التصوف الشرعي المعتدل- في "مشكاة الأنوار"، لينتشر بعد ذلك ويتعمق في النظريات الصوفية **للسهروردي** شيخ الإشراق، الذي نشر التعاليم المتصلة بفلسفة النور فيما يقرب من خمسين كتابا بالعربية والفارسية، وهي مؤلفات ما تحتوي في الوقت نفسه على انتقادات للفلسفة المشائية ولابن سينا ودمجا مدهشا نسبيا وعجيبا في الوقت نفسه لعناصر إيرانية وهلينية وشرقية قديمة. وقد كانت ذروة مؤلفات الشهروردي كتاباه "حكمة الإشراق" و"هياكل النور"، اللذين كتبت عليهما شروح كثيرة في اللغات الإسلامية. وكان السهروردي قد استلهم المباحث الإلهية عند الحلاج، وفي الوقت نفسه واصل تقاليد إيران القديمة ومصر الفرعونية، وهو يستمد حكمة من يعد نفسه الممثل الحقيقي عن هرمس (النبي إدريس). وبذلك حاول السهروردي توحيد الاتجاهين الرئيسيين لتقليد المعرفة الإلهية لمرحلة ما قبل الإسلام، مما يجعل عمله في غاية الأهمية لدارس تاريخ الدين.

وترى المؤلفة أن معظم تراث السهروردي بقي حكرا على العالم الفارسي. ولئن كانت مؤلفات **ابن عربي** يمكن عدها قمة النظريات الصوفية بعد القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أن المؤلفة تعتقد أنه لا يمكن تقدير تأثيره في التصوف العام، كما أن تفسيرا صحيحا لفكر ابن عربي أمر صعب. وإذا كان النظام الكامل لابن عربي يحدد عموما بتعبير "**وحدة الوجود**"، فإن الترجمة الصحيحة لهذا التعبير تقدم المفتاح لمعظم نظرياته الأخر. ولئن كان ممكنا فهم ابن عربي بشكل أعمق من قبل، فإن المناقشة حول تأثيره -أكان إيجابيا أم سلبيا- لن تنتهي ما دام هناك طريقان مختلفان للهدف الصوفي بالعمل والموافقة للإرادة أو بالتأمل والعرفان.

أما معاصر ابن عربي الشاعر الصوفي **ابن الفارض** فقد اختزل تجاربه الصوفية في عدد قليل من القصائد الغنائية ذات الجمال الرائع في أسلوب الشعر العربي، وقد حظي باهتمام الباحثين الأوروبيين منذ البداية الأولى للدراسات الشرقية، وكان يقلد اللغة المجازية الصوفية للقرون الوسطى، وكثيرا ما فهم شعره بوصفه شاهدا على تفسير الإسلام وفق وحدة الوجود، حيث تطور تصوف الوحدة وانتشرت فكر ابن عربي سريعا في كل أرجاء عالم الإسلام واكتسبت أنصارا لا يحصون عدا، خاصة في المناطق الناطقة بالفارسية والتركية. وترجع شميل هذا النشاط الصوفي إلى التغيرات السياسية في القرن الثالث عشر الميلادي، وتقرر أن فضل انتشار فكر ابن عربي على نطاق واسع يرجع إلى كتابين اثنين: "روضة السر" للشبستري المتوفى 1311م (بالفارسية) و"الإنسان الكامل " للجيلي المتوفى 1408م (بالعربية)، لكنها ترى أن على المرء ألا يستخلص نتائج بعيدة المدى من استخدام وحدة الوجود في الشعر حيث استخدمت لدى الشعراء الأكثر التزاما بمبادئ الشرع، ولا غنى عن أن يميز الإنسان بعناية بين اللغة الشعرية والأنظمة الخارجة عن نطاق المادة.

وفي حديثها عن **الشعر الصوفي الفارسي والتركي** ترى أنه من غير المفيد البحث عن تفسير صوفي صرف أو عن تفسير دنيوي خالص لقصائد حافظ أو جامي أو العراقي، ذلك أن غموضها مقصود والتذبذب بين مستويي الوجود مقصود أيضا، وربما يضاف إليهما مستوى ثالث. كما لا يمكن أن يستمد نظام صوفي من الشعر الفارسي أو التركي أو يرى فيه تعبير عن تجارب تقييما سطحيا. ثم تعرض الكاتبة لموضوعات هذا الشعر ورموزه فضلا عن شعرائه، خاصة **جلال الدين الرومي** الذي لا توجد شخصية صوفية معروفة في الغرب مثله، وقد ترك أكثر من ثلاثين ألف بيت من الشعر الغنائي وأكثر من ستة وعشرين ألف بيت في المثنوي، بالإضافة إلى أحاديث المائدة المسمى "فيه ما فيه" والذي يستبدل بالخيال الشعري الحجة المنطقية (وقد ترجمه عيسى العاكوب إلى العربية ونشر في دمشق)، وقد كان للطريقة المولوية أثر كبير في

نشر كلام الرومي وموسيقاه في عهود الدولة العثمانية، فضلا عن تأثر الشعراء به وشرحهم لكلامه. وقد كان له حضوره الواضح في التصوف الشعبي التركي.

أما في **الهند وباكستان** فيرجع التأثير الكامل للتصوف فيها إلى أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين، إثر اندماج الطرق الصوفية الرئيسة في أقاليم الإسلام المركزية، والممثل الأكثر بروزا لهذه الحركة معين الدين **الجشتي** المتوفى 1236م ومن خلفه من بعده، ولا تستبعد شميل وجود تأثيرات متبادلة بين التصوف الإسلامي والتصوف الهندوسي، وكذلك تطور مجاهدات الأولياء الهنود المسلمين تحت تأثير رياضات اليوغا. على أن بعض المؤلفات النظرية حول الممارسات اليوغية ألفها علماء هنود مسلمون. وتسجل في هذا الإطار محاولة في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي لتلفيق دين جديد من أحسن عقائد الأديان إبان حكم الإمبراطور أكبر، لكنها محاولة لم تفلح، لاسيما وأن المعارضة القوية لها جاءت من لدن الطريقة **النقشبندية** التي كانت طريقة ناجحة للغاية في آسيا الوسطى وذات أثر كبير في الحياة السياسية خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر الميلادي. وتختم شميل دراستها للتصوف في الهند وباكستان بالحديث عن **الشعر الصوفي في اللغات المحلية** (السندية والبنجابية والباشتو)، حيث ما تزال الأغاني والقصائد الصوفية رائجة كما كانت منذ مائة وخمسين سنة، وتعرض لأهم الشعراء وموضوعات شعرهم، لكنها تختم بأن أرقى أدب صوفي هو ذلك الذي ألف بالعربية والفارسية، وكثير من الموالد في تشريف النبي ﷺ مؤلف في هاتين اللغتين.

و**تختم شميل** كتابها بالجدل الدائر حول مسارات التصوف والطرق الصوفية و"الثيوصوفية" والشيخية الخطيرة. وهي ترى أن تصوف المحبة والمعاناة الذي يعلم الإنسان أن يحيا وأن يموت في سبيل هدف خارج نفسه هو الرسالة الأكثر أهمية للتصوف اليوم، وتنهي بكلام لابن عطاء يقول فيه: "إذا رأيتم الصوفي يتكلم عن الناس فاعلموا أنه فارغ".

وألحقت المؤلفة الكتاب ببحثين طريفين: الأول "**رمزية الحرف في الأدب الصوفي**" الذي ترى فيه أن دراسة متأنية للصلات بين فن الخط والفكر الصوفي ويمكن أن تثمر نتائج ممتعة وتسهم في فهم أفضل لبعض الفكر الصوفية وللفن الإسلامي أيضا. أما البحث الثاني: "**العنصر الأنثوي في التصوف**"، فترى فيه أن موقف التصوف من الجنس اللطيف كان متأرجحا، حتى إنه يمكن أن يقال إن التصوف كان أكثر تأييدا لتطور النشاطات الأنثوية مما كانت عليه فروع الثقافة الإسلامية الأخرى.

هذه القراءة في الأبعاد الصوفية للإسلام تجعل القارئ يقف باحترام أمام هذا الجهد البحثي في جمع شتات التصوف من مختلف مراحل التاريخ وسائر أصقاع الجغرافيا وعبر لغات متعددة كتب بها أو درس من خلالها، ليصاغ التصوف في الإسلام ضمن نسق علمي يحفظ تنوع اتجاهاته وتعدد نظرياته ومستوياته، مع وعي عميق لأدواره التاريخية المقبول منها والمرفوض. والأهم من ذلك الذوق الأدبي والحياد العلمي في مقاربة موضوع حساس كالتصوف يعبر عن جانب من نظرة المسلمين للعالم. ولا بد أيضا من كلمة تقدير للمترجم الذي صبر على نقل كتاب بهذا الحجم والعمق إلى العربية بلغة رشيقة تحافظ على الطبيعة الأدبية للموضوع في سياقاتها، وقد اقتدر المترجم على ذلك لما له من اهتمام خاص بالأدب الصوفي، لاسيما وقد سبق له أن ترجم بعض أعمال جلال الدين الرومي. فبصدور الترجمة العربية لهذا الكتاب تسد ثغرة غير يسيرة في الدراسات المرجعية الشاملة حول التصوف في المكتبة العربية على الرغم من مرور ثلاثة عقود على تأليف الكتاب.